دكتور محمود حمدي زقزوق
وكيل كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بجامعة قطر

الإسلام والاستشراق

يطلب من
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
تليفون ٩٢٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤ م

جميع الحقوق محفوظة

دار الضامن للطباعة
٢٢ شارع سامي - ميدان الأزبكية
القاهرة - تليفون ٣٠٥٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الاسلام والاستشراق (١)

— تمهيد :

ان مما لا جدال فيه ان الاستشراق له أثر عظيم فى العالم الغربى وفى العالم الاسلامى على السواء وان اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين . ولا يكاد المرء فى عالمنا العربى المعاصر يجد مجلة أو صحيفة أو كتابا الا وفيها ذكر أو اشارة الى شىء عن الاستشراق أو يمت اليه بصلة قريبة أو بعيدة . وهذا أمر ليس بمستغرب وذلك لأن الاستشراق فى حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءا لا يتجزأ من قضية الصراع الحضارى بين العالم الاسلامى والعالم الغربى ، بل يمكن ان نذهب الى أبعد من ذلك ونقول ان الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع . ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر اليه على انه قضية منفصلة عن باقى دوائر هذا الصراع الحضارى . فقد كان للاستشراق من غير شك أكبر الأثر فى صياغة التصورات الأوروبية عن الاسلام وفى تشكيل مواقف الغرب ازاء الاسلام على مدى قرون عديدة .

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء فى عالمنا العربى الاسلامى ، فهناك من يؤيده ويتحمس له الى أقصى حد وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا ويلعن كل مشتغل به بوصفه عدوا لدودا للاسلام والمسلمين .

والواقع الذى لا يمكن انكاره هو ان الاستشراق له تأثيراته القوية فى الفكر الاسلامى الحديث أيجابا أو سلبا أردنا أم لم نرد .

---

(١) محاضرة القيت ضمن محاضرات الموسم الثقافى للمحاكم الشرعية والشئون الدينية بدولة قطر فى ١٤٠٣/٣/٤ هـ الموافق ١٩٨٢/١٢/١٩م .

ولهذا فاننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفى بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة ، اننا لو فعلنا ذلك لكنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال . ولهذا فانه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج وطرح الحلول واقتراح البدائل .

ومن أجل ذلك أردت أن أحدثكم اليوم عن الاستشراق وأبعاده فى موضوعية هادئة أو فى هدوء موضوعى . ولن نستطيع بطبيعة الحال فى محاضرة كهذه أن نوفى هذا الموضوع حقه من البحث ونستوفى الحديث عن كل جوانبه ، ولكن حسبنا أن نلقى بعض الضوء على بعض النقاط الهامة ، لعل ذلك يكون حافزا لنا على التفكير والتأمل فى هذا الموضوع . ونبدأ أولا بالقاء نظرة تاريخية على الحركة الاستشراقية وتطورها . وقد تبدو مثل هذه النظرة التاريخية لأول وهله شيئا معادا ومكررا ، ولكن لابد لنا على الرغم من ذلك من الامساك بشتى الخيوط التى تساعدنا على الالمام بجوانب الموضوع ، فضلا عن أننا من خلال هذه النظرة سنتعرف عن قرب على تطور الدراسات الاسلامية لدى المستشرقين .

***

٢ ــ تاريخ الاستشراق وتطوره :

ترجع البدايات الأولى للاستشراق لدى بعض الباحثين الى مطلع القرن الحادى عشر ويرى المستشرق الألمانى المعاصر رودى بارت أن بداية الدراسات العربية والاسلامية فى أوروبا تعود الى القرن الثانى عشر . وقد جعل نجيب العقيقى كتابه عن المستشرقين فى اجزائه الثلاثة سجلا للاستشراق على مدى الف عام .

وعلى أية حال فان الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل فى ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الاسلامى والمسيحى فى الأندلس وصقلية ، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة الى

اشتغال الأوروبيين بتعاليم الاسلام وعاداته . وقد نشط اللاهوتيون المسيحيون فى ذلك الوقت ضد الاسلام وزعموا فيما زعموا أن الاسلام قوة خبيثة شريرة وأن محمدا ليس الا صنما أو اله قبيلة أو شيطانا ، وغذت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين . ولسم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الاسلام ، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين فى ذلك الزمان . وقد اعترف أحد ممثليهم وهو « جيبير دو نوجينت » Guibert de Nogent بانه لا يعتمد فى كتاباته عن الاسلام على أية مصادر مكتوبة ، وأشار فقط الى آراء العامة وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب ، ثم قال مبررا كتاباته غير العلمية « لا جناح على المرء اذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء » . وقد أطلق « ساوذرن » Southern على هذه الفترة فى كتابه « نظرة الغرب الى الاسلام فى القرون الوسطى » عنوان : عصر الجهالة .

وفى مقابل تلك الصورة البغيضة للاسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول الى قدر من الموضوعية فى مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية . يقول « مكسيم رودنسون » عن تلك الفترة : « ولا يصادف المرء موقفا موضوعيا الا فى مجال مختلف تماما لا يمت الى الدين الاسلامى الا بصلة بعيدة وأعنى العلم بأوسع معانيه » .

وقد أخطأ « رودنسون » هنا فى جعله العلم لا يمت الى الاسلام الا بصلة بعيدة . فقد كان الاسلام فى واقع الأمر وراء كل انجاز علمى حققه المسلمون فى مختلف المجالات .

وبدءا من عام ١١٣٠ كان العلماء المسيحيون فى أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم ، وكان لرئيس أساقفة طليطلة الفضل فى اخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية

العربية بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من تراث العالم الكلاسيكى . وكانت هناك فى القرن الثانى عشر أيضا بعض المحاولات للتعرف على الاسلام بقدر من الموضوعية ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة هذه التعاليم الاسلامية الالحادية . ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر (ت ١١٥٦) رئيس رهبان كلونى بتشكيل جماعة من المترجمين فى أسبانيا يعملون كفريق واحد من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الاسلامى . وفى تلك الفترة ظهرت أول ترجمة للقرآن عام ١١٤٣ قام بها الانجليزى « روبرت أوف كيتون » Robert of Ketton .

وهكذا نجد أنه قد كان هناك فى هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف ازاء الاسلام . أما الاتجاه الأول فقد كان اتجاها لاهوتيا متطرفا فى جدله العقيم ، ناظرا الى الاسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية . أما الاتجاه الثانى فقد كان نسبيا بالمقارنة الى الاتجاه الأول أقرب الى الموضوعية والعلمية ، ونظر الى الاسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة . ولكن الاتجاه الخرافى ظل حيا حتى القرن السابع عشر وما بعده . ولا يزال هذا الاتجاه للأسف حيا فى العصر الحاضر فى كتابات بعض المستشرقين عن الاسلام ونبيه .

وأحد المسيحيين المستنيرين القلائل الذين كانوا ينظرون ازاء الاسلام موقفا أقرب الى الاعتدال كان فريدريك الثانى حاكم صقلية الذى أصبح امبراطورا حوالى عام ١٢٢٠م وكان يعرف العربية ويتشبه بالعرب فى لباسهم وعاداتهم ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية . وقد كان نصيب هذا الامبراطور أن طرده البابا « جريجورى التاسع » Gregory IX من الكنيسة عام ١٢٣٩ . وقد كانت احدى التهم التى وجهت اليه هى ما يبديه من مظاهر الود تجاه الاسلام .

والأمر المهم بالنسبة لتطور الاستشراق كان الاقتناع بضرورة تعلم لغات المسلمين اذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتى ثمارها بنجاح . ومن بين من تبنى هذا الرأى الذى فرض نفسه بالتدريج — « روجر بيكون » Roger Bacon « ورايموند لل » Raimund Lull وقد صادق مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢م على أفكار بيكون ولل بشأن تعلم اللغات الاسلامية واللغة العربية على وجه الخصوص . وقد تم تنفيذ ذلك فى جامعات باريس وبولونيا واكسفورد وسلمنكا .

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية فى نهاية العصر الوسيط تلك الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التى أتسعت رقعتها حينذاك . وقد كان للروابط الاقتصادية لكل من أسبانيا وايطاليا مع كل من تركيا وسوريا ومصر أثر كبير فى دفع حركة الدراسات الاستشراقية .

وفى القرن السادس عشر وما بعده أدت النزعة الانسانية فى عصر النهضة الأوروبية الى دراسات أكثر موضوعية من ذى قبل ، ومن ناحية أخرى ساندت البابوية الرومانية دراسة لغات الشرق من أجل مصلحة التبشير . وفى عام ١٥٣٩ تم انشاء أول كرسى للغة العربية فى « الكوليج دى فرانس » فى باريس . وشغل هذا الكرسى « جيوم بوستل » Guillaume Postel (ت ١٥٨١) الذى يعد أول المستشرقين الحقيقيين . وقد أسهم كثيرا فى اثراء دراسة اللغات والشعوب الشرقية فى أوروبا ، وجمع فى الوقت نفسه وهو فى الشرق مجموعة هامة من المخطوطات . وقد سار على نهجه تلميذه « جوزيف اسكاليجر » Joseph Scaliger (ت ١٦٠٩) وفى عام ١٥٨٦ استفادت اللغة العربية فى أوروبا من المطابع التى أسسها الكاردينال دوق تسكانيا الكثير .

وفى القرن السابع عشر بدأ المستشرقون فى جمع المخطوطات

الاسلامية ، وانشئت كراسي للغة العربية فى أماكن مختلفة ، ومما هو جدير بالذكر أن قرار انشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج عام ١٦٣٦ قد نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجارى والآخر تبشيرى . فقد جاء فى خطاب للمراجع الأكاديمية المسئولة فى جامعة كامبردج بتاريخ ٩ مايو ١٦٣٦ الى مؤسسى هذا الكرسى ما يأتى : « ونحن ندرك أننا لا نهدف من هذا العمل الى الاقتراب من الأدب الجيد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنور بدلا من احتباسه فى نطاق هذه اللغة التى نسعى لتعليمها ، ولكنا نهدف أيضا الى تقديم خدمة نافعة الى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية ، والى تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة والدعوة الى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن فى الظلمات » . وفى القرن السابع عشر ايضا ظهرت مؤلفات عامة عن الاسلام والحضارة الاسلامية والأدب الاسلامى . وبدلا من الآراء التى تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت عن محمد بوصفه بأنه شيطان ، وعن القرآن بوصفه بأنه مزيج من اللغو الباطل ظهرت آراء أخرى أقل عنفا ، وذلك على سبيل المثال لدى « بيير بايل » Pierre Bayle فى قاموسه التاريخى والنقدى « روتردام ١٦٩٧ » ، أو لدى « سيمون أوكلى » ١٦٧٨ — ١٧٢٠ فى كتابه تاريخ السراسنة أى العرب المسلمين . فالسرد التاريخى فى هذا الكتاب يعد نسبيا غير متحيز ، ولكن وصف المؤلف للنبى ﷺ بأنه « رجل خبيث جدا وماكر ، وان ما كان يبديه من شمائل طيبة مجرد أمر ظاهرى يخفى حقيقة نفسه التى كان يحكمها الطموح والطمع » هذا الوصف أسقط المؤلف مرة ثانية فى بؤرة المواقف اللاهوتية السابقة .

وقد كانت أول محاولة علمية جادة للتعرف على الاسلام على يد « هادريان ريلاند » Hadrian Reland أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة أوترشت بهولاندا . فقد صدر له كتاب باللغة اللاتينية عن

الاسلام عام ١٧٠٥م بعنوان « الديانة المحمدية » فى جزءين عرض فى اولهما العقيدة الاسلامية معتمدا على مصادر بالعربية واللاتينية . وفى الجزء الثانى قام بتصحيح الآراء الغربية التى كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الاسلام . وقد أثار الكتاب اهتماما عظيما لدرجة ادت الى اثارة الشبهات حول المؤلف باتهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائى للاسلام ، فى حين انه لم يكن يقصد الا الى الوصول الى فهم الدين الاسلامى فهما صحيحا ممهدا بذلك السبيل الى محاربته من جانب المسيحية بطريقة افضل من ذى قبل .

ولكن الكنيسة الكاثوليكية ادرجت الكتاب فى قائمة الكتب المحرم تداولها . وعلى الرغم من ذلك ترجم الكتاب الى اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والأسبانية . ويشير ريلاند فى مقدمة الكتاب الى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها ، اما بعدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبىء عن قصد خبيث . وقد تعرض الاسلام الى مثل ذلك من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى . ويقول ريلاند « ان المرء يصح له حقا أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت » . ولهذا يريد أن يعرض الاسلام لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل وخبث الناس ، وانما كما يدرس حقيقة فى مساجد المسلمين ومدارسهم . فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان فى هذا العالم فى أى عصر من العصور الى مثل ما تعرض له الاسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء . وقد وصل الأمر الى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين يصفها بأنها نظرية محمدية كما لو كان الأمر أنه لا يوجد فى تعاليم محمد شىء صحيح وأن كل ما فيها فاسد . واذا ابدى احد رغبة صادقة فى التعرف على الاسلام لا تقدم له الا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات . ويضيف « ريلاند » قائلا : ينبغى على المرء بدلا من ذلك أن يتعلم اللغة العربية وأن يسمع

محمدا نفسه وهو يتحدث فى لغته ، كما ينبغى على المرء أن يقرأ فى الكتب العربية وأن يرى بعينيه هو وليس بعيون الآخرين ، وحينئذ سيتضح له أن المسلمين ليسوا مجانين كما نظن . فقد أعطى الله العقل لكل الناس . وقد كان فى رأيى دائما أن ذلك الدين الذى انتشر انتشارا بعيدا فى آسيا وافريقيا ، وفى أوروبا أيضا ليس دينا ماجنا أو دينا سخيفا كما يتخيل كثير من المسيحيين .

وبعد ذلك يقول ريلاند : صحيح أن الدين الاسلامى دين سىء جدا وضار بالمسيحية الى حد بعيد . ولكن أليس من حق المرء لهذا السبب أن يبحثه ؟ ألا ينبغى للمرء أن يكتشف أعماق الشيطان وحيله ؟ ان الأحرى هو أن يسعى المرء للتعرف عليه حقيقة لكى يحاربه بطريقة أكثر أمانا واشـــد قوة .

وقد تكون عبارات « ريلاند » الأخيرة هذه مجرد ذر للرماد فى العيون حماية لنفسه من بطش الكنيسة التى لم تقتنع بهذه المبررات فحرمت تداول الكتاب لأنها لم تكن تريد للحقيقة أن ترى النور حتى لا يطلع عليها جمهور الناس .

وفى نهاية القرن الثامن عشر وبالتحديد فى عام ١٧٩٥ أنشئت فى باريس مدرسة اللغات الشرقية الحية وبدأت حركة الاستشراق فى فرنســا تتخذ طابعــا علميا على يــد « سلفســتر دوســاسى » Silvestre de Sacy (ت ١٨٣٨) الذى أصــبح امام المستشرقين الأوروبيين فى عصره .

وفى عــام ١٧٧٩ ظهــر فى انجلتــرا مفهوم « مســتشرق » Orientalist وسرعان ما ظهر بعد ذلك فى فرنســا عــام ١٧٩٩ . وأدرج مفهوم « الاستشراق » Orientalism فى قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨ .

وهنـــاك كثير من المســـتشرقين ـــ وبوجـــه خاص فى المـــانيا والنمسا ـــ بدأوا طريقهم فى مجال الاستشراق مترجمين أو فناصل لدولهم فى الشرق الأوسط : مثل « جوزيف فون هامر برجشتال » (ت ١٨٥٦) مؤسس أول مجلة استشراقية متخصصة فى أوروبا وهى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت فى « فيينا » من عام ١٨٠٩ الى عام ١٨١٨ . وفى ذلك الوقت بدأ المستشرقون فى مختلف بلدان أوروبا وأمريكا بانشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية . فقد تأسست أولا الجمعية الآســـيوية فى باريس عام ١٨٢٢ ثم الجمعية الملكيـــة الآســـيوية فى بريطانيا وايرلندا عـــام ١٨٢٣ ، والجمعية الشرقية الأمريكية ١٨٤٢ والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥ . .

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات فى اصدار المجلات والمطبوعات المختلفة . وفى نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الاسلامية تخصصا قائما برأسه داخل الحركة الاستشراقية العامة . وقد كـــان كثير من علماء الاسلاميات والعربية فى ذلك الوقت ـــ مثـــل نولدكه وجولد تسيهر وفلهاوزن ـــ مشهورين فى الوقت نفسه بوصفهم علماء فى الساميات على وجه العموم أو متخصصين فى الدراسات العبرية أو فى دراسة الكتاب المقدس .

وفى عام ١٨٩٥ ظهرت فى باريس مجلة تمنح اهتمامها بصفة خاصة للعالم الاسلامى وهى مجلة الاسلام ، وقد خلفتها فى عام ١٩٠٦ مجلة العالم الاسلامى التى صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية فى المغرب ، وقد تحولت بعد ذلك الى مجلة الدراسات الاسلامية .

وفى عام ١٩١٠ ظهرت مجلة « الاسلام » Der Islam الألمانية ، وفى « بطرسبرج » بروسيا ظهرت مجلة « عالم الاسلام » Mir Islama عام ١٩١٢ ولكنها لم تعمر الا وقتا قصيرا . وفى بريطانيا ظهرت مجلة

« العالم الاسلامى » عام ١٩١١ على يد صمويل زويمر (ت ١٩٥٢) الذى كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط .

وقد كان للمد الاستعمارى فى العالم الاسلامى دوره فى استخدام فئة من المستشرقين للمساعدة على تحقيق الأهداف الاستعمارية فى بلاد المسلمين عن طريق دراساتهم الموجهة الى خدمة الاستعمار . وسنعود الى الحديث عن هذه النقطة مرة أخرى ان شاء الله .

وقد بقيت هنا فى الحديث عن تاريخ الاستشراق وتطوره نقطة أخرى تتعلق بدور المستشرقين اليهود فى اطار الحركة الاستشراقية والأسباب التى دفعتهم الى الاستشراق .

ان من الصعب الحصول على اجابة صريحة على هذه النقطة . فقد أغفلت المراجع التى تتحدث عن الاستشراق وتطوره — أغفلت الحديث عن هذا الجانب . ونعتقد أن السبب فى ذلك يرجع الى أن المستشرقين اليهود قد استطاعوا أن يكيفوا انفسهم ليصبحوا عنصرا أساسيا فى اطار الحركة الاستشراقية الأوروبية المسيحية . فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوروبى لا بوصفهم اليهودى . وقد استطاع جولد تسيهر فى عصره — وهو يهودى مجرى — أن يصبح زعيم الاسلاميات فى أوروبا ، ولا زالت كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كافة فئات المستشرقين . وهكذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهود حتى لا يعزلوا انفسهم وبالتالى يقل تأثيرهم . ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوروبيين وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا أولا فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها ، وكسبوا ثانيا تحقيق أهدافهم فى النيل من الاسلام ، وهى أهداف تلتقى مع أهداف غالبية المستشرقين المسيحيين .

ويشير المرحوم الأستاذ الدكتور محمد البهى فى كتابه « الفكر

الاسلامى الحديث » (ص٥٣٤) الى ملاحظة لبعض الباحثين حول تفسير أسباب اقبال اليهود على الاستشراق .

وتتلخص هذه الملاحظة فى أنهم اقبلوا على الاستشراق **لأسباب دينية** تتمثل فى محاولة اضعاف الاسلام والتشكيك فى قيمه باثبات فضل اليهودية عليه بادعاء **أن اليهودية فى نظرهم هى مصدر الاسلام الأول . ولأسباب سياسية** تتصل بخدمة الصهيونية فكرة أولا ثم دولة ثانيا . ويرى الدكتور البهى أن وجهة النظر هذه على الرغم من أنها لا تعتمد على مصدر مكتوب يؤيدها ، فان الظروف العامة والظواهر المترادفة فى كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه وتضفى عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمى .

ونحن فى الواقع لسنا فى حاجة الى دليل لاثبات كراهية اليهود للاسلام ، وذلك لأن هذه الكراهية قد ظهرت واضحة كالشمس منذ ظهور الاسلام . وقد اكد القرآن ذلك فى قوله تعالى : « **لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا** » (١) . وقد ظل اليهود طوال تاريخهم يتحينون كل فرصة متاحة ليكيدوا للاسلام والمسلمين . وقد وجدوا فى مجال الاستشراق بابا ينفثون منه سمومهم ضد الاسلام والمسلمين ، فدخلوا هذا المجال مستخفين تحت رداء العلم ، كما وجدوا فى الصهيونية بابا آخر يفرضون منه سيطرتهم على العرب المسلمين .

***

٣ ــ مواقف المستشرقين :

وبعد هذه النظرة السريعة على تاريخ الاستشراق وتطوره ننتقل الى الحديث عن نقطة أخرى وهى مواقف المستشرقين . وهذا الموضوع يعد موضوعا حساسا للغاية ، أذ أن المواقف الاستشراقية تشتمل

---

(١) المائدة : ٨٢ .

من غير شك على بعض الجوانب الايجابية التى يجب أن تذكر لهم ، كما تتمثل فى المواقف الاستشراقية طائفة اخرى من الجوانب السلبية التى يجب أن تسجل عليهم . وحتى نكون موضوعيين فانه لابد لنا من الاشارة الى ما لهم من ايجابيات والتنبيه على ما لديهم من سلبيات . ولا ضير على المرء اذا اعترف بما لعدوه من مزايا ، اذ أن ذلك ربما يكون حافزا لنا على النهوض والاستعداد من جديد ، وقبول التحدى الذى تفرضه علينا — نحن المسلمين — ظروف العصر .

أما هذه الايجابيات التى سنذكر طرفا منها هنا فاود أن أنبه الى أن بعضها يعد أمورا تخص المستشرقين وتتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم ، والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط ، وبعضها الآخر أمور تتصل بانتاجهم العلمى الذى يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب ، وان كان المستشرقون قد قصدوا به فى المقام الأول خدمة انفسهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم .

(أ) الجوانب الايجابية :

وتتمثل الجوانب الايجابية للمستشرقين فى الأمور التالية :

١ — يخدم المستشرقون أهدافهم التى وضعوها لأنفسهم باخلاص تام لهذه الأهداف وتفان الى أقصى حد وبكل الوسائل . وعندما أراد المستشرق الهولندى سنوك هورجرونيه أن يكتب كتابا عن مكة لم يثنه عن عزمه لدراسة مكة على الطبيعة أنه مسيحى لا يجوز له أن يدخل مكة ، فانتحل اسما اسلاميا هو عبد الغفار ، وزار مكة عام ١٨٨٤ وأقام هناك مدة خمسة اشهر ، وكان يجيد العربية كأحد ابنائها . وبعد هذه الرحلة كتب عن مكة كتابين أولهما : الحج الى مكة ، وثانيهما : مكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر — فى جزءين — وصف فيه مكة وصفا دقيقا شاملا مع خرائط عديدة . والمستشرقون بصفة عامة

لديهم صبر عجيب ونادر فى البحث والدرس واحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة . وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق الى « الاعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم » .

وقال الشيخ أمين الخولى بعد حضوره مؤتمر المستشرقين الدولى الخامس والعشرين « لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكى بحثا عن نوادر مخطوطات القرآن فى القرن السادس عشر الميلادى . وانى اشك فى أن الكثيرين من ائمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات . وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها » .

٢ — هناك ترابط تام بين جماعات المستشرقين فى مختلف البلدان وتنسيق مستمر وتعاون وتكامل فى مجالات الدراسات العربية والاسلامية . فقنوات الاتصال بينهم قائمة ومستمرة عن طريق المؤتمرات المنتظمة والدوريات والحوليات والمجلات والنشرات والمطبوعات المختلفة . وقد بلغ عدد المؤتمرات الدولية للمستشرقين منذ عام ١٨٧٣ حتى عام ١٩٦٨ ثلاثين مؤتمرا . وهذا عدا المؤتمرات والندوات واللقاءات الاقليمية . وتضم المؤتمرات الدولية مئات العلماء . فمثلا مؤتمر «اكسفورد» كان يضم ٩٠٠ عالم من ٢٥ دولة و ٨٥ جامعة و ٦٩ جمعية علمية . ومجموعات العمل فى كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة تختص كل منها ببحث قطاع معين من الدراسات الاستشراقية .

٣ — التوفر على موضوع معين من الدراسات العربية والاسلامية وقضاء العمر كله فى البحث والاستقصاء لاستيفاء شتى جوانبه . ولهذا نجد أن لديهم معرفة جيدة بكل ما ينشر عن الدراسات الاسلامية والعربية فى بلادنا العربية . ومكتباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والاسلامية قديمها

وحديثها . وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهى أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالاثم اذا ما نبهته الى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية .

٤ ـــ دائرة المعارف الاسلامية ـــ على ما لنا نحن المسلمين عليها من مآخذ ـــ وتعد هذه الدائرة ثمرة من ثمار التعاون العلمى الدولى بين المستشرقين . وقد تم اصدارها فى طبعتها الأولى بالانجليزية والفرنسية والألمانية فى الفترة من عام ١٩١٣ الى عام ١٩٣٨م وقد ترجمت الى العربية حتى حرف العين . وقد أصدر المستشرقون طبعة جديدة أعيدت فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات . وقد ظهرت هذه الطبعة الجديدة فى الفترة من عام ١٩٥٤ الى عـــام ١٩٧٧ . وقد أشار نجيب العقيقى الى أن اللجنة العربية لترجمة دائرة المعارف ترجع الآن الى الطبعة الجديدة ابتداء من حـرف العين بدلا من الرجوع الى الطبعة القديمة التى تقادمت بعض معلوماتها .

٥ ـــ تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (ت ١٩٥٦) وهو كتاب أساسى فى الدراسات العربية لا يستغنى عنه باحث فى الدراسات العربية و لاسلامية . وهذا الكتاب لا يقتصر على الأدب العربى وفقه اللغة ، بل يشـــمل كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الاســـلامية . فهو سجل للمصنفات العربية المخطوط منها ، والمطبوع ، ويكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين . وقد صـــدر أولا فى مجلدين عام ١٨٩٨ وعام ١٩٠٢ ثم أتبعه المؤلف بثلاث مجلدات تكميلية كبيرة فى الفترة من ١٩٣٧ الى ١٩٤٢ ثم أعاد نشر المجلدين الأساسيين فى عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٩ فى طبعة أخرى معدلة ليتناسب تعديلهما مع المجلدات الثلاثة التكميلية . وقد وافق المؤلف على طلب الجامعة العربية على ترجمة الكتاب

الى اللغة العربية . ولكن المشروع لازال للأسف يتعثر حتى الآن . ويقوم الباحث التركى المسلم « فؤاد سيزكين » ، تلميذ المستشرق الألمانى « هلموت ريتر » — بعد اكتشاف آلاف المخطوطات — يقوم باكمال عمل « بروكلمان » وذلك فى كتابه « التراث العربى » بالألمانية الذى ترجم بعضه الى العربية ، ومنح عليه جائزة الملك فيصل منذ بضع سنوات . والحق يقال انه لولا كتاب بروكلمان لما كان كتاب « فؤاد سيزكين » .

٦ — جمع المخطوطات العربية من كل مكان وبشتى السبل ، والعمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة ، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفا دقيقا ، وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين فى مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو اجراءات معقدة . وقد قام مثلا « الوارد » Ahlwardt بوضع فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة « برلين » فى عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فنا ودقة وشمولا ، وصدر هذا الفهرس فى نهاية القرن الماضى واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط . وقد قام المستشرقون فى كافة الجامعات والمكتبات الأوروبية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة . وتقدر المخطوطات العربية الاسلامية فى مكتبات اوروبا بعشرات الآلاف بل قد يصل عددها الى مئات الآلاف .

وهنا ايضا كلمة حق يجب ان تقال وهى ان انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات الى أوروبا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة . وعندما اقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة فى كثير من بلادنا العربية والاسلامية وما آل اليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة او استحالة الاستفادة منها .

٧ — للمستشرقين باع طويل فى مجال المعاجم . وأخص بالذكر هنا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف . الذى يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالاضافة الى مسند الدارمى وموطأ مالك ومسند الامام أحمد بن حنبل . وقد تم نشره فى سبعة مجلدات فى الفترة من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٦١ . وتفيد منه كافة المعاهد والجامعات الاسلامية فى العالم . وقد تعاون على اخراجه عدد من المستشرقين المعروفين . ونشير أيضا الى الجهد الذى بذله « أوجست فيشر » (ت ١٩٤٩) فى معجم اللغة العربية القديمة مرتبا على المصادر . فقد قضى فيشر أربعين عاما فى جمعه وتنسيقه وتعاون معه عدد من المستشرقين .

٨ — قام المستشرقون بنشر الكثير من أمهات كتب التراث . وقد عرفنا الكثير من هذا التراث محققا ومطبوعا على أيديهم . ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضا بترجمة مئات الكتب العربية الاسلامية الى كافة اللغات الأوروبية .

***

(ب) الجوانب السلبية :

وبعد هذه النظرة التى ألقيناها على ما للمستشرقين من ايجابيات يحق لنا الآن أن ننبه الى الجوانب السلبية فى تفكيرهم ودراساتهم . وتنصب النواحى السلبية بصفة أساسية على دراساتهم عن الاسلام وما يتصل به . وفيما يلى نعرض نماذج من هذه السلبيات :

١ — يعد الاستشراق أسلوبا خاصا فى التفكير ينبنى على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب . « فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » كما قال الشاعر الاستعمارى المشهور « كبلنج » Kipling . فالغربيون عقليون محبون للسلام متحررون

منطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية ، أما الشرقيون فليس لهم من ذلك كله شيء .

ولكن هناك حقيقة هامة يتجاهلها المستشرقون ببساطة ، وهى أن الحضارة الغربية — التى يصفونها باعتزاز بأنها حضارة مسيحية — مبنية فى الأصل على تعاليم رجل شرقى وهو المسيح عليه السلام ، وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على أيدى العرب . وهذه الحقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية الى شرق وغرب والتى يعتمد عليها الاستشراق أمرا مخالفا للمنطق . فالمسيحية دين شرقى ، والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالمسيحية والشرق متخلف لأنه يدين بالاسلام ، زعم لا أساس له من العلم ولا من الواقع ، فالتقدم الذى يشهده الغرب اليوم فى مجال العلم والتكنولوجيا لا علاقة له بالمسيحية كدين ، والتخلف الذى يعانى منه الشرق لا يتحمل الاسلام وزره . فهذا التخلف يعد — كما يقول المرحوم « مالك بن نبى » عقوبة مستحقة من الاسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون .

٢ — الاستشراق — من بين شتى العلوم الأخرى — لم يطور كثيرا فى أساليبه ومناهجه . وفى دراسته للاسلام لم يتخلص قط من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتى العقيم الذى انبثق منه الاستشراق أساسا . ولم يتغير شيء من هذا الوضع حتى اليوم باستثناء بعض الشواذ . وتخدم اليوم وسائل الاعلام المتعددة فى الغرب فى تأكيد وتقوية الوضع التقليدى الذى لا يزال ينظر الى الاسلام الى حد كبير بمنظار القرون الوسطى . ولعل هذا هو مادعا السكرتير العام للمجلس الاسلامى الأوروبى فى شهر يناير ١٩٧٩ الى التنديد بوسائل الاعلام الغربية لموقفها من الاسلام ، ووصفه لهذا الموقف بالاجحاف والافتراء على حقائق الدين وتشويهها . وهذا كله يحدث على الرغم من أن

مجلس الفاتيكان قد أشاد فى أكتوبر ١٩٦٥ بالحقائق التى جاء بها الاسلام والتى تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين ، وعلى الرغم أيضا من قول المستشرق الألمانى المعاصر « رودى بارت » : ان الدراسات الاستشراقية منذ منتصف القرن التاسع عشر تنحو نحو البحث عن الحقيقة الخالصة ولا تسعى الى نوايا جانبية غير صافية .

وللمستشرق الفرنسى المعاصر « رودنسون » وجهة نظر أخرى حيث يذهب الى القول بأن هناك ثورة فى التفكير قد حدثت فى التصورات الأوروبية للاسلام ، الأمر الذى جعل التقييم المسيحى لمحمد ﷺ مسألة حساسة . فلم يعد بامكانهم الزعم الكاذب بأنه « محتال شيطانى » كما كان عليه الحال فى العصور الوسطى . وفى الوقت الذى نجد فيه بعض المفكرين المسيحيين الذين يهتمون بالمشكلة يعلقون الحكم بحذر ، فاننا نجد بعض الكاثوليك المتخصصين فى الاسلام يعتبرون محمدا ﷺ « عبقريا دينيا » ، ويتساءل آخرون عما اذا كان فى الامكان اعتباره بطريقة ما نبيا حقيقيا ما دام القديس توماس الاكوينى يقول بالنبوة التوجيهية التى لا تعنى بالضرورة العصمة والكمال . ومعنى هذا الكلام هو عدم الاعتراف بالنبوة الحقيقية للنبى ﷺ التى تعنى اصطفاءا الهيا ووحيا سماويا وعصمة ربانية .

والواقع أنه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون معنا — نحن المسلمين — فى الرأى حول الاسلام ، وانما الغريب أن يتفقوا معنا فى الرأى . وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للاسلام ونبيه يختلف عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين . ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة فلا ننتظر منهم أن يتبنوا وجهة نظرنا التى تنظر الى الاسلام على أنه دين سماوى ختم به الله الرسالات السماوية وأن محمدا خاتم النبيين ، وأن القرآن وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنهم لو فعلوا ذلك